المدخل

حين شاءت إرادة الحق- عزّ وجلّ ـ أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض قالت الملائكة:

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

* * *

من هنا كانت البداية: **بداية عداء الشيطان للإنسان**، وهو عداء صنعته نزعة الاستعلاء العنصرى بتفضيل عنصر النار الذى منه

(١) سورة البقرة ، الآيات: ٣٠ ـ ٣٤.

إبليس على عنصر الطين الذى خلق الإنسان منه، والذى علّل به إبليس رفضه السجود لآدم[1] ـ الإنسان ـ وقال حين سأله الحق سبحانه:

﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[2].

وإزاء عداء الشيطان للإنسان وإزاء حقده عليه حين طرد إبليس من الجنة، وحلّت عليه اللعنة، أخذ إبليس على نفسه العهد أن يغوى آدم (الإنسان) وذريته فى حرص بالغ على أن يؤكد زعمه بأنه خير من آدم ـ الإنسان ـ وأنه كان الأولى بالاستخلاف فى الأرض، فسأل إبليس ربّه أن ينظره إلى يوم الدين، ولحكمة عليا شاءتها إرادة الحق قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

* * *

وكانت هذه البداية بداية العداء الشديد من الشيطان للإنسان والتى كتب لها أن تتصل منذ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) وقد توارث اليهود هذه النزعة الإبليسية: نزعة الاستعلاء بغير الحق زاعمين أنهم شعب الله المختار، ويرتبون لهذه الخيرية المزعومة قداسات وحقوقا ما أنزل الله بها من سلطان، لكن لها قوة القانون فى المجتمعات الغربية تحت شعار ما يسمى معاداة السامية.

(٢) سورة صٓ، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

(٣) سورة صٓ، الآيات: ٨٠ ـ ٨٣.

كانت تحمل تحذيراً سرمديا للإنسان أن يظل ما عاش فى حالة تدافع وتصارع وجهاد مع كل عناصر وقوى ورموز وسلوكيات الشرّ والخطيئة التى يمثلها عدوّ الله إبليس.

كما أصبحت تلقى على عاتق الإنسان ـ منذ آدم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ مسئولية عظمى فى التمكين لكلمات الله فى الأرض، والعمل الدءوب لإعمارها، وإرساء قوانين العمران والاجتماع الإنسانى بالمنظور والرؤية التى تحدث عنها القرآن، والتى هى موضوع بحثنا فى هذه الدراسة.

* * *

وحتى لايضعف الإنسان فى مواجهة «الشيطان» فقد شاء الحق سبحانه أن يشعر الإنسان أنه محروس برعاية مولاه، وأن يؤكد له أن عداوة الشيطان لاينهزم أمام كيدها إلا الضعفاء إيمانًا وعقيدة، والذين يغفلون ـ فى زحمة الحياة الدنيا وشهواتها ـ عن أن كيد الشيطان ضعيف أمام صنائع الإيمان، وأن بحسب الإنسان إذا أحس بكيد الشيطان أن يستعيذ بالله منه، وأن يكون على ثقة عظمى فى أن لاسلطان للشيطان على أهل الإيمان كما قررته الآيات:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[1].

(١) سورة النحل، الآيات: ٩٨ - ١٠٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة الرعد، من الآية: ١١)

ثم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(١).

* * *

ثم ليكون الإنسان على يقين كبير من أن بوسعه أن يهزم الشيطان ـ كل شيطان ـ إذا استوعب ووعى سنن الله والقوانين القرآنية التى تقرر أن الحق لايمكن أبدًا أن يهزم، وإن حدث هذا لتقصير بشرى فالغلبة فى النهاية للذين ينتصرون للحق، وللحق نفسه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٢).

هذه القوانين التى تقرر أن مداولة الأيام بين النصر والهزيمة إنما هى إحدى السنن القرآنية الثوابت التى لاتنقطع، وإذا انقطعت فلكى تتصل، والتى قررها القرآن الكريم فى مثل قوله:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(٣).

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾(٤).

* * *

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الأنبياء، من الآية: ١٨.
(٣) سورة يوسف، من الآية: ١١٠.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٩، ١٤٠.

ليس هذا فقط فى ميدان القتال، بل فى كل ميدان وكل معركة يصطرع فيها الحق والباطل، والصواب والخطأ، وهذا ما أكدته أحداث التاريخ فى عصر النبوة والراشدين، ثم فى مواجهة التتار والصليبيين وغيرهم.

* * *

وإذا كانت سنن الله تحسم التدافع بين الحق والباطل... تحسمه بالمعجزات لصالح الحق فى عصر النبوات والرسالات على ما هو معروف مع جميع رسل الله..

فإن حَسْم هذا التدافع الآن..ـ وبعد انتهاء النبوات والمعجزات ـ منوط بالإنسان... **الإنسان وحده الذى يجرى الله** ـ تبارك وتعالى ـ سننه فى نصر الحق ودحر الباطل **من خلال حركة الإنسان ودوره** وجهده لإنفاذ مشيئة الله، والتمكين لكلماته فى الأرض.

ولمساعدة الإنسان على النهوض بهذا الدور الفاعل والكبير، وحتى لايَهِنَ أو يتخاذل فقد وضعت السماء بين يديه مفاتيح التمكن والقدرة على الْغَلَبِ، **فمنحته العقل، وميزته بالعلم** ـ علم الدنيا وعالم الشهادة قبل علم الآخرة والغيب ـ **سبيلا إلى امتلاك القوة** التى تعطيه القدرة على حراسة الحق ونصره فى معركة التدافع الأبدية بين الإنسان وبين الشيطان.

* * *

ليس هذا فحسب، بل جاءت الرسالة الخاتمة إلى البشرية ـ التى لانبوات بعدها ولا معجزات ـ لتضع ـ من خلال كتابها «القرآن» ـ بين يدى الإنسان «منهجية التغيير» الرشيد والمأمون الذى هو مجال دراستنا هذه، والذى لايعتمد العنف سبيلا إلى التغيير ولا يرتضى ما تعارفت عليه المجتمعات الحديثة من «الانقلابات» و «الثورات»... وما يكون فيها من العنف، وإنما **يجعل التغيير مهمة «الأمة» كلها ومهمة «المجتمع» كله الذى تكون قد سبقت تربيته على «القيم» البناءة من «الشورى» و «الشفافية» والاهتمام الدائم** من كل أفراد المجتمع **بكل أحوال المسلمين**، واعتبار هذا الاهتمام شرطا أساسيا لاستحقاق المواطن المسلم «جنسية» الأمة أو نفيها عنه كما أشار الحديث النبوى: **«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»**

* * *

وفى ضوء ماسبق وضع الإسلام مجموعة من الضوابط، أو الثوابت التى تبنى فى ظلها الشخصية المسلمة التى يكون أفرادها مؤهلين لممارسة هذا التغيير الرشيد والمأمون، وهى:

أولا : تربية الوجدان الدينى للفرد المسلم بما يجعل **مصلحة الأمة والمصلحة العامة أسبق فى مناط الاهتمام عنده على المصلحة الخاصة بحيث** يربّى على الإيثار لا على الأثرة.

وحديث **«السفينة»** التى رأى أحدهم أن يخرقها ليسهل عليه الحصول على الماء بدل أن يعانى مشقة الصعود إلى أعلاها ثم قول

الرسول ﷺ: **«فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلكوا جميعا»**[1]. يكفى لتوضيح الحد الفاصل والدقيق بين المصلحتين الخاصة والعامة، وإيثار الإسلام للثانية على الأولى لايحتاج إلى مزيد بيان.

* * *

ثانيا: أن تكون «القيم» و «الثوابت» الإيمانية والأخلاقية هى محور الارتكاز الذى تبنى عليه الشخصية الإسلامية بعيداً عن الاغترار بزينة الدنيا وبعيدًا عن المصالح الشخصية الزائلة، والزائفة..

وموقف الحبيب ﷺ من «الدنيا» وقوله لعمر - رضى الله عنه - لما رآه ينام على حصير قد أثر فى جنبه ﷺ فقال عمر: لو اتخذنا لك فراشا لينا؟! فيكون ردّ الحبيب: **«ياعمر.. مالى وللدنيا إنما مثلى ومثلها كمثل راكب استظل تحت ظل شجرة، ثم راح وتركها»**[2].

هذا الموقف النبوى الشامخ، ثم مواقف الراشدين بعده من زينة الدنيا أعظم ما يمكن به شحن الطاقة الإيمانية وإذكاؤها بحيث **تصنع رجالا لاتكون الدنيا أكبر همهم- ولا أصغره أيضا - بل تكون همومهم أن يمكنوا لكلمات الله فى الأرض**، وحسب امرئ منهم لقيمات تقيم صلبه!!

* * *

(١) البخارى ٣/ ١٨٢ وأحمد ٤/ ٢٦٩ والبيهقى فى السنن ١٠/ ٢٨٨.
(٢) ابن حبان فى صحيحه برقم ٢٥٢٦. (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان).

ثالثا : بناء الوجدان الدينى للفرد المسلم على خشية الله ومخافته بحيث يمتلك رقابة داخلية تصنع له حِسّ التمييز الدقيق بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين ما هو فساد وما هو صلاح؛ فينتصر للحق ويناهض الباطل وإن لم يدعه إلى ذلك أحد.

* * *

رابعا : وهو ماينبغى اعتباره بمثابة الإطار الذى يقام عليه كل ماسبق، وأعنى به **اعتماد «العلم» بمفهومه المطلق سبيلا للحكم على الأحداث والتصرفات** وصولا إلى الحكم الصحيح والقياس الصائب الذى يستحيل معه الانخداع أو سوء الحكم.

بإيجاز أقول :

إنه عندما تتم تربية الفرد المسلم على مثل هذه الأسس يكون المجتمع الذى بنى من هذه الخلايا النظيفة والإيجابية مع الحق: يكون قادراً على استشعار الخلل فور حدوثه، ويكون أيضا قادراً على التغيير ممتلكا لأدواته الآمنة والرشيدة التى اعتمدها القرآن فى تغيير ما بالنفس، وليس فى مجرد تغيير الأشكال والأشخاص.

* * *

لكن هذا الذى جرت الإشارة إليه ـ فى إيجاز ـ كطريق إلى بناء المواطن المسلم القادر على إحداث التغيير المستمر لتعديل وتصحيح المسارات المنحرفة.. ليس بالأمر الهيّن الذى ذكرناه فيما

سبق تلخيصه فى بنود محدودة لكنه من أشق وأصعب المهام التى تحتاج إلى مثل عزائم أهل العزم من الأنبياء والمصلحين، وخاصة حين يفسد الزمان، وحين تستبد بالإنسان زينة الحياة الدنيا، فتتآكل فى فطرته عناصر الخير والحق، وتأخذ شهوات الحس فى الاستبداد بأمنياته واهتماماته. فتتضعضع عزيمته وينهزم قبل أن يجاهد.

وهذا ما سقطت فيه أكثر أجزاء الأمة المسلمة فى زماننا بفعل عوامل كثيرة من داخل أحوالنا ومن خارجها وتراكمت كلها لتصنع الإنسان المشوه، الذى قل فيه الخير، وكثر الشر، ونامت فى حسّه عزائم أهل الخير، فاستسلم لغواية المغوين وإفساد المفسدين، وفقد القدرة على المقاومة وعلى مجرد التفكير فى التغيير.

* * *

هنا نواجه المهمة الأشبه بالمستحيل.

غير أن ثوابت الإيمان تومض فى هذه الظلمة بنور التوجيه القرآنى الحاسم يقول:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]

ويقول: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وبهذا يؤذن الفجر، معلنا الدعوة إلى ميلاد مجتمع جديد.

وهنا تتاح الفرصة لوسيلة التغيير فى المنهجية القرآنية وهى «الكلمة»: الكلمة التى كانت ـ وستبقى ـ أعظم القسمات الحضارية لرسالة الإسلام العظيم.

... والله من وراء القصد

د. عبد الصبور مرزوق

* * *